من التاريخ إلى فلسفة التاريخ -قراءة في تطور الفكر التاريخي في الفلسفة الغربية
د. حساين دواجي غالي - جامعة سيدي بلعباس

التاريخ: دلالات المعنى وتطور المفهوم :

التاريخ كلمة نسمعها يوميا وهي تجري على أفواه البشر، تلوكها الألسنة، ونأخذها على أنها ذات المدلول البسيط، ويبدو لنا من الوهلة الأولى أنه بالإمكان إعطاء معنى أو تعريفا للتاريخ.أو بإمكاننا أن نعود إلى أي كتاب من الكتب المختصة أو قاموس من القواميس للوقوف على معناها. لكننا عندما نحاول ذلك، نجد أنفسنا في مواجهة العديد من التعاريف المختلفة، المتباينة تارة ، والمتكاملة تارة أخرى وكذا المتناقضة. وهذا مرجعه التصور الذي نتبناه في فهم معنى التاريخ. وسنحاول من خلال هذا المقال أن نتناول بعض التعاريف اللغوية والاصطلاحية علنا نقترب من تحديد مفهوم للتاريخ . وأن نقف على أهم المحطات الفكرية التمر بها تطور التاريخ، لنبين مدى اهتمام الغرب بالفكر التاريخي.

إن كلمة (تاريخ) عموما في اللغة تعني تحديد الزمن وهي كلمة مشتقة من مادة **أرخ يؤرخ** التي تعني الشهر في اللغات السامية والقديمة كاللغة الأكادية واللغة البابلية، واللغة الآشورية وتدل في اللغة العربية على الإعلام بالوقت، مضافا إليه ما وقع في ذلك الوقت من أخبار ووقائع.1 يقول (الجوهري): "التاريخ تعريف الوقت و التوريخ مثله"2.

والجدير بالذكر أن العرب المسلمين كانوا يستعملون أحيانا كلمة (عدَّ) بمعنى (أرَّخ) قبل أن تصبح كلمة تاريخ واشتقاقاتها متداولة بينهم بمعنى التوقيت والتقويم، إذ نقل البخاري عن سهل بن سعد الساعدي قوله: "ما عدُّوا من مبعث النبي، ولا من وفاته. ما عدوا إلا من مقْدَمِه المدينة "3. وقد جرى استعمال كلمة (تاريخ) لمعنى التوقيت بعد ذلك، حتى أصبح معنى هذه الكلمة لغة يدل كما تصرح معاجم اللغة على الإعلام بالوقت أو تعريف الوقت، وانحصر مفهومها في حقبة استعمالها الأولى تلك بهذا المعنى، وإن تعددت ألفاظها بين: **تاريخ**، وتأريخ، وتوريخ .4

وتطلق لفظة تاريخ تارة على الماضي البشري ذاته، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعني بهذا الموضوع ، وهذا اللبس نراه حتى في اللغات الأجنبية histoire الفرنسية و history الإنجليزية، و Geschicht الألمانية. تستعمل الكلمة للمعنيين على السواء إذ يراد من كل تلك الكلمات الإفرنجية حوادث الماضي وأحيانا أخبار هذه الحوادث أو العلم الذي يحققها، وقد حاول بعض الباحثين في الغرب التمييز بينها فأطلق بعض الفرنسيين مثلا كلمة Histoire بـ:(H)

على الماضي و histoire بـ(h) على العلم الذي يدرسه واحتفظ الألمان بـ: Geschichte للمعنى الأول و Histoire للمعنى الثاني، ولكن العادة الجارية ظلت غالبة و بقي اللبس قائما .

وهكذا يتجلى هذا الاختلاف بين اللغات رغم أنها بالجذر الهندوأروبي (فيد-wid) ويعني المعرفة. فلفظة هيستور Histor كان يراد بها الإنسان الخبير المجرب، أو الإنسان العارف ومنها أتى فعل هيستوريو Historio. أي "البحث عن المعرفة"5. وهو نفس الأمر الذي يؤكده (جوزيف هورس) في كتابه قيمة التاريخ حيث يراد بكلمة تاريخ الإنسان الخبير والمجرب والإنسان العارف، ومنها أتى الفعل هيستوريو Historio أي البحث في المعرفة.6

ويرجع (مصطفى النشار) في كتابه من" التاريخ إلى فلسفة التاريخ "أن الاشتقاق اللفظي لكلمة Istoria يرجع إلى القرنين السادس والخامس قبل الميلاد حيث قصد به في البداية "البحث عن الأشياء الجديرة بالمعرفة "، وهو كما نلاحظ معنى عام جدا فالأشياء الجديرة بالمعرفة متعددة وكثيرة. وانحصر هذا المعنى العام بمرور الوقت وصارت الكلمة دالة على نوع واحد من المعرفة هو معرفة الأحداث التي وقعت في الماضي ورافقت تطور الأشياء و الظواهر المختلفة ، وبذلك ولد تعبير (التاريخ) بمفهومه الشائع .الذي استخدمه به أوائل المؤرخين اليونان. أمثال (هيرودوت) و(ثيوكيديدس) اللذين قصراها على تتبع الأحداث التاريخية التي صنعها الإنسان في الأزمان الماضية، ومحاولة تمحيص هذه الأحداث، وروايتها على نحو ما وقعت به فعلا بقدر الإمكان .

ثم بدأت الكلمة تتخذ معاني أخرى أكثر اتساعا لدى بعض الفلاسفة، فقد استخدمها (أرسطو) حينما كتب عن (تاريخ الحيوان) فأصبح التاريخ ليس فقط تاريخا للإنسان وإنما يمكن أن يكون هناك تاريخا للحيوان، والنبات وربما يتسع المعنى أكثر ليكون هناك تاريخا لكل مادة، أو لكل شيء من أشياء الطبيعة الأخرى. وأخذ الرمان الكلمة بمبناها ومعناها كما يقول (روزنتال) في كتابه : "علم التاريخ عند المسلمين"، كتعبير فني لم تتبدل حروفه بانتقاله إلى اللغات الرمانية غير أن معناها أصبح يتقلص7.

وفي العربية فإن كلمة (التأريخ أو التاريخ و التواريخ) كلمات ترادف بالعربية كلمة histoire ويبدو أنها استعملت أول مرة في الآداب العربية مع أخبار إدخال التقويم الهجري بمعنى (التوقيت) أو (التقويم) وجاء بعد أن أتخذ المسلمون في عهد الخليفة الراشدي الثاني تقويما خاصا بهم يستند إلى الهجرة النبوية8 .

لكن المعنى اللغوي هذا للكلمة تطور بعد تداوله لحقبة من الزمن، فحمل دلالات اصطلاحية، فضلا عن دلالته السابقة، إذ أصبحت كلمة (تاريخ) ترادف كلمة (أخبار)، التي كانت تستعمل من قبل. وتماثلها في معنى مشترك هو: تسجيل الحوادث على أساس الزمن. وهي عملية يقوم بها(الإخباري). ثم بدأت تحل منذ حوالي منتصف القرن الهجري الثاني كلمة (تاريخ) محل كلمة (أخبار)، وأصبحت تعني تدوين حوادث الماضي و حفظ الأخبار بشكل متسلسل متصل الزمن والموضوع.9

كما يرجح بعض الباحثين أنها من أصل سامي، ومن اللغة العربية الجنوبية وهي تعني في أصالتها الأولى "القمر"أو "الشهر" ثم انتقل للدلالة على الشهر في الوثائق حيث اكتسبت الكلمة بعدها معنى الكتابة التاريخية. وقد رسخت في القرن الثاني للهجرة الثامن الميلادي. كما نجد من يرجح ويزعم أن لفظ (تأريخ) مشتق من (تاريخ) العبرية بمعنى القمر أو (يرخ) معنى الشهر10، هذا الرأي يذهب إلى أن كلمة تاريخ أخذت عن أصل سامي مشترك هو كلمة (ورخ) بمعنى القمر أو الشهر، وهو أصل اشتقت منه ألفاظ متعددة في اللغات السامية، كلفظ (أرخو) في الأكادية، و(يرخ) في العبرية و(ورخ) في العربية الجنوبية.11

أما في العصر الحالي منذ القرن التاسع عشر فقد صارت فكرة التاريخ فكرة عامة وأصبحت تطلق على كل شيء سواء كان حيا أو جامدا .12

أما من ناحية الضبط الاصطلاحي، فهناك العديد من التعاريف الاصطلاحية التي حاولت أن تضبط مفهوم التاريخ فإن المتصفح للكتب والمقالات المهتمة بابستيمولوجية التاريخ كعلم، سوف نجد كما هائلا من هذه التعاريف المتعددة، مختلفة ومتناقضة حينا، ومتكاملة حينا آخر ونجد من بينها :

يعرفه (أرسطو)على أنه :«جمع الوثائق» ويعرفه (بيكون):«العلم بالأمور الجزئية التي تكون الذاكرة وسيلتها»، وعند(ابن خلدون) هو:«خبر عن الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم، وما يعرضه لطبيعة ذلك العمران من الأحوال مثل التوحش والتأنس والعصبيات وأصناف التغلبات للبشر بعضهم على بعض، وما ينشأ عن ذلك من الملك و الدول ومراتبها، وما ينتحله البشر من أعمالهم ومساعيهم من الكسب والمعاش والعلوم والصنائع وسائر ما يحدث من ذلك العمران بطبيعته من الأحوال.» وهو عند (السخاوي) : «فن يبحث فيه عن وقائع الزمن من حيثية التعيين والتوقيت بل عما كان في العالم.». ويعرفه (هيجل)hegel :«هو مجموع الدراسات الخاصة بالفكر باعتباره مناقض للطبيعة »..مما يجعل التاريخ «ليس هو الماضي والحضر فحسب بل إنه أيضا مستقبل الإنسانية الحرة» و لهذا كما سنرى نجده يربط مفهوم العقل الحر

بمفهوم التاريخ إذ تاريخ الإنسان عنده هو تاريخ التقدم البشري كما أنه يمثل مراحل نمو العقل الحر للإنسان عبر الزمان .

ويعرفه (كولنجوود) collingwood :«التاريخ هو نشاط عقلي يقوم به المؤرخ،فهو ماض يحييه المؤرخ و يستحضره» أو هو :«التاريخ علم يكشف عن جهود الإنسان ، أو الأعمال التي قام بها في الماضي .». كما يعرفه الفيلسوف الإيطالي (كروتشه) croce «التاريخ بأجمعه هو تاريخ معاصر، بمعنى أن التاريخ يتألف بصورة أساسية من رؤية الماضي من خلال عيون الحاضر وعلى ضوء مشاكله».

ومن جهة أخرى فهذا (إدوارد كار) Edward carr يرى:« التاريخ هو عملية مستمرة من التفاعل بين المؤرخ ووقائعه وحوار سرمدي بين الحاضر والماضي ..ولماذا لا نقول مع المستقبل لأن الزمن التاريخي هو ثلاثي في طبعته الأصلية ،ماض،حاضر، ومستقبل،زمن مسترسل.». ويعرفه (هنري بيير)Henri Berr :« إن التاريخ في المفهوم العلمي هو البحث عن الأسباب التي أنتجت الحضارة منذ قدم العصور ودفعتها قدما عبر الكثير من الأزمات ..»

(ريمون آرون) Raymond Aron هو الآخر يعطينا تعريفا للتاريخ :«التاريخ هو سرد أو هو قصة الأموات يحكيها الأحياء». وكذلك نجد (فرناند بروديل) Fernand Braudel يعرف التاريخ: «إن التاريخ هو الإنسان ...والباقي كل شيء تاريخ ...الأرض والمناخ ...التاريخ علم للإنسان في الزمان عبر المكان...» وهنا نشير إلى أن هذا تأكيد على جيو-تاريخ Géo histoire .

ويعرفه (وولش) Walsh: «إن التاريخ بمفهومه الأمثل، رواية لأفعال الماضي البشري، نظمت على نحو لا نرى فيه ما حدث فحسب، بل أيضا لماذا حدث .

أما على المستوى الفكر العربي المعاصر ،فهذا (عبدا لله العروي): «التاريخ من صنع المؤرخ، معناه التاريخ المحفوظ هو ما يرويه الحافظ ،التاريخ ينتهي عند المؤرخ..»13 ، فالتاريخ من منظور العروي هنا هو استحضار للماضي من طرف المؤرخ.

كما يرى (قسطنطين زريق) أن التاريخ هو: «السعي لإدراك الماضي البشري وإحيائه ...إن لهذا الإحياء قواعده وضوابطه المجارية للغرض العلمي الخالص ».14

أما (فتحي تريكي) فيرى :« إن التاريخ في العمق هو دراسة الماضي البشري انطلاقا من حس نوعي بالزمان وبإشكالات عصر الدارس أقول الماضي البشري لأنه لا محل للحديث عن التاريخ بالنسبة لغير الإنسان ...».

وهكذا نجد أنفسنا أمام كم هائل من التعاريف المختلفة التي تحملنا على صعوبة تبني تعريف معين لأنه قد نأخذ بأحد التعاريف دون تردد وهكذا من الأفضل أن نأخذ بإجابة (هنري مارو) Henry Marro عندما طرح عليه السؤال: ما التاريخ؟ أجاب: أقترح أن التاريخ هو معرفة الماضي البشري كما فعل (ريمون آرون).15

التاريخ بين النزعة الطبيعية و النزعة المثالية:

لقد أثار علماء التاريخ والمناهج مسألة مهمة حول ما إذا كان التاريخ علما كالعلوم التجريبية ؟ وقد استهوى هذا المبحث نفوس كبار المؤرخين، فمنهم من ينفي صفة العلمية عن التاريخ، باعتبار أن العلم يفيد المعرفة اليقينية الدقيقة بحقيقة الشيء، ومنهم من يرى أن التاريخ هو تلك المعرفة العلمية بشؤون الماضي، وأنه بإمكان نقل مناهج العلوم التجريبية إلى حقل العلوم الإنسانية نظرا لأوجه التشابه بين علم التاريخ والعلوم الطبيعية، فالمنهج التاريخي هو نفسه المنهج المطبق في العلوم الحقة الأخرى. وهذا ما تؤكده النزعة الطبيعية يقول (كارل همبل): «هناك طبيعة في التاريخ كما هناك تاريخ في الطبيعة»16، مبينا أن ما أحرزته العلوم الطبيعية من تقدم منذ القرن السابع عشر قد انعكس على العلوم الإنسانية، ولما كان من أسباب هذا التقدم انتهاج العلوم الطبيعية (المنهج التجريبي)، فقد تساءل علماء الإنسانيات عن مدى إمكان تطبيق منهج العلوم الطبيعية على علوم الإنسان، لتحرز تقدما مماثلا .

وما يمكن ملاحظته أن الفضل في تقدم العلوم الطبيعية يرجع بالدرجة الأولى إلى فلاسفة وعلماء ،من خلال انشغال الفلاسفة بالمنهج و العلماء بالموضوع ،كما يتبين ذلك من خلال الفلاسفة أمثال (بيكون، لوك، وهيوم)والعلماء أمثال(جاليليو، كبلر، ونيوتن).

لقد انعكس ما أنتجه هؤلاء العلماء و الفلاسفة، وما أحرزوه من نتائج في مجال العلوم الطبيعية على التاريخ ، وأصبح العلم هو وحده القادر على إغراء التاريخ بعد أن تصدعت سلطة الدين والفلسفة.

وأما المؤرخون الذين ينفون صفة العلمية عن التاريخ، فيرون أن علوم الطبيعة وحدها خاضعة للتفسير والتعليل،لأنها تقوم على الملاحظة والتجربة والاستقراء والمقارنة. بخلاف العلوم الإنسانية والتي من ضمنها التاريخ لأنها لا تخضع إلا للفهم والتأمل. ويقصد هنا بالتفسير النهج التحليلي الذي يقوم على إبراز العلاقات السببية بين الظواهر، في حين أن الفهم نهج تركيبي يرتكز على معرفة الغير وتأويل النوايا البشرية عبر استعمال التفكير الفلسفي.17

يقول (كروتشه):« كل التاريخ تاريخ معاصر» 18. تعتبر النزعة التاريخية أهم ممثل لهذا التيار الذي يرى أن منهج التاريخ مستقل عن منهج العلوم الطبيعية، ويمثل (هردر) *هذه الحركة، لقد تكاتفت عوامل دينية وفلسفية وأدبية لتجعل من (هردر) رائد الحركة التاريخية المعارضة لعصر التنوير، فالفهم للتاريخ لديه كما حدده في كتابه "فلسفة أخرى للتاريخ" يقتضي التحرر من سوء التصور عصر التنوير للتاريخ، معتبرا أنه عصر يفترض وحدة الطبيعة البشرية، ويقيم بصورة مطلقة يفرضها على كل عصور التاريخ ، مع أن التغير الدائم هو جوهر مسار التاريخ،كذلك ليست مهمة المؤرخ إصدار أحكام الزيغ والظلال على الماضي.كما يرى أن زعماء عصر التنوير يرون أن التاريخ تدهور خلال العصر الوسيط وتقدم خلال عصر التنوير، وبذلك يتجاهلون الطابع الاستمراري للتاريخ.كما أن التاريخ يمثل روح الأمة ولا يمكن التعرف على روح الأمة بمنهج العلوم الطبيعية، لأن هذا لا يكشف إلا على الطابع الظاهري أما الماضي التاريخي فهو ماضي روحي، ولا يمكن التعرف على الروح إلا بالروح. ومن ثم فلابد على المؤرخ كي يتعرف على شخصية الأمة أن يتفاعل معها، وأن يستشعر في ذاته تراثها، ولا يتسنى له ذلك بمنهج العلوم الطبيعية.

والحقيقة أن التاريخ علاقة بين طرفين :وقائع الماضي وعقل المؤرخ، وقد طرحت المدارس التاريخية في الفكر المعاصر تصورات عدة أعادت للتاريخ واقعيته، وقربته من الدراسة العلمية المجردة من البواعث الفلسفية، وهذا ما تطرحه مدرسة الحوليات من خلال التاريخ الجديد حيث نجد انفتاح مؤرخي الحوليات على التخصصات الاجتماعية المختلفة الأخرى ،كان له أكبر الأثر على صناعة التاريخ، فالتجديد لم يلحق موضوع ومنهج المؤرخ فحسب بل أثر في عقلية المؤرخ ذاتها، وكما قال (بروديل) فإن:«التاريخ ربما لأنه أقل العلوم بناء، يقبل كل دروس جيرانه ويعمل على تطبيقها».

فلسفة التاريخ:المفهوم و الدلالات

تقديم:تعتبر فلسفة التاريخ عموما أهم المباحث الفلسفية الحديثة ،فهي لم تتضح كمعرفة مستقلة إلا في القرن السابع عشر، ثم تحددت معالمها في القرن الثامن عشر الذي شهد العديد من فلاسفة التاريخ أمثال(فيكو، مونتسيكيو، وتورجو، وفولتير، وكوندروسيه، هردر، وغيرهم) وبلغ الاهتمام بالدراسات التاريخية ذروته في القرن 19 حتى ليمكن أن نطلق عليه اسم (عصر التاريخ) على يد أعلام هذا القرن أمثال:هيجل ،ماركس، توينبي وشبنجلر.

من هنا نتساءل ماهي فلسفة التاريخ؟ وماهو الفرق بينها وبين التاريخ من جهة وعلم التاريخ من جهة أخرى؟

مفهوم فلسفة التاريخ:

إن الفلسفة ضرورية للتاريخ كما هي ضرورية لأي علم آخر، فلا يمكننا أن نتحدث عن أسباب التدهور والانحلال والتقدم والانحطاط والتي هي وقائع تاريخية إلا داخل الفلسفة بمعرفة السبب الكلي أو العلة الأولى، وقد ذكر (هورس) في كتابه "قيمة التاريخ": «أن التاريخ لا يستطيع وحده وبكفاية من ذاته أن يغذي حياة داخلية وثقافة في الإنسان، ولا يستطيع أن يصبح العنصر المدير بالنسبة إليهما ولا روحهما...فهذا الدور لا يقدر على تمثيله غير الفكر المتحكم بالنظريات ...ولنقل ..غير الفلسفة»19.

لذا ومع هذه الضرورة وهذا التكامل بين الفلسفة والتاريخ أصبح لزاما على الفلاسفة وحتى المؤرخين إخضاع حقل التاريخ للفلسفة، وكان (فولتير) أول من استعمل وبصفة مباشرة المصطلح في القرن الثامن عشر، وكان يقصد به عرض تحليلي ونقدي، فكانت تعني عنده «التفكير المستقل الذي يستند إلى النقد والتحليل »20. وكان فولتير يعني بمصطلحه المبتكر هذا أن يدرس التاريخ على أسس تحليلية نقدية يلتزم فيها المؤرخ بنوع من التفكير التاريخي يمكنه من تمييز روايات التاريخ ، على وفق تلك الأسس، لاستبعاد غير المعقول منها. وهذا المفهوم مستمد كما هو واضح من المعنى الذي يتبناه فولتير للفلسفة، إذ هي عنده "التفكير المستقل الذي يستند إلى النقد والتحليل "21 ومن ثم نجد أن المفهوم الذي قصده فولتير من فلسفة التاريخ كان لا يتجاوز عملية البحث التاريخي ، ودراسة التاريخ بما يوسع من أفاقها الفكرية والنقدية للوصول إلى تاريخ يعكس طبيعة التقدم المطرد للعقل البشري ، ويبتعد عن دائرة الأفكار الضيقة للمؤرخين الأوربيين التي تهتم بالحروب والتاريخ السياسي فحسب، دون تاريخ الحضارات.22

ثم قام (جون باتيستا فيكو) ومن خلال كتابه "علم جديد" تحديد تصور جديد لمفهوم التاريخ متجاوزا مفهوم (ديكارت) للمعرفة التاريخية. وفي حدود القرن 19 استعمل (هيجل) وغيره العبارة نفسها ولكنهم قصدوا بها معنى آخر هو التاريخ العام أو تاريخ العالم ... ثم استخدمت نفس العبارة في معنى ثالث على لسان الكثير من فلاسفة القرن 19 والذين رأوا أن فلسفة التاريخ تهدف إلى الكشف عن قوانين عامة تنظم سياق الحوادث التي يتبعها التاريخ .

عموما فإن فلسفة التاريخ هي البحث في الوقائع التاريخية من أجل اكتشاف العوامل الأساسية التي تؤثر في سير هذه الوقائع وتعمل على استنباط القوانين العامة التي تتطور بموجبها الأمم والدول أي تهتم بتفسير وفهم مجرى التاريخ في ضوء نظرية فلسفية معينة ، وتضع لعلم التاريخ أساسا فلسفيا، بحيث لا يبقى التاريخ مجرد سرد وتفسير للوقائع فقط، وإنما البحث عن القوانين الثابتة التي تفسر تاريخ البشرية وفق تحليل دقيق .23

ونخلص من كل هذا ومهما تعددت الرؤى إلى فلسفة التاريخ في أبسط تعريف لها عبارة عن النظر في الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية، والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر العصور.24

ومن هذا التعريف يتجلى لنا الفرق بين التاريخ كعلم ، وفلسفة التاريخ، فعلم التاريخ يخضع لقواعد منطقية بعيدة عن الاعتباطية و الصدفة، في حين أن فلسفة التاريخ تسعى إلى الوقوف على العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الحوادث التاريخية الكلية ، فهي تسعى إلى الكشف عن الروابط المنطقية للحوادث التاريخية في كليتها، ففيلسوف التاريخ لا ينظر إلى الحوادث التاريخية كأجزاء بل كوحدة عضوية بين الحوادث .

ومن هنا يتبين لنا أن فلسفة التاريخ تقوم على مبدأين أساسيين هما:

1- **الكلية** : إن فيلسوف التاريخ يرفض أن يكون التاريخ ركاما من الأحداث الثقافية التي لا يربطها نظام و لا هدف، إنه يسعى لفهم التاريخ على أساس أنه يمثل وحدة عضوية مترابطة الأجزاء ، و من ثم فإن نقطة البدء في فلسفة التاريخ هي التكامل بين أجزائه و الترابط بين وقائعه و صولا إلى فهم التاريخ على أساس أنه تاريخ عالمي شامل للإنسانية ،فلسفة التاريخ لا تقف عند عصر معين و لا تكتفي بمجتمع خاص و إنما تظم العالم كله في إطار واحد من الماضي السحيق ، حتى اللحظة التي يدون فيها الفيلسوف نظريته25 .

2- **العلية** : فيلسوف التاريخ يحاول أن يفسر تاريخ العالم من خلال علة أو علتين، وهنا يختلف التعليل عند فلاسفة التاريخ عن التعليل عند المؤرخين، فعند المؤرخين تكون العلل والأسباب جزئية خاصة بحوادث فردية في زمن معين، في حين التعليل عند فلاسفة التاريخ تكون عامة ويقوم باختزال هذه العلل في علة واحدة كما يتجلى لنا ذلك عند هيجل مثلا عندما جعل العلة تكمن في تحقق الروح المطلق، أو علة ماركس القائمة على صراع الطبقات، أو شبنجلر الذي يجعلها تكمن في مسار الحياة مثل الكائن الحي، أو توينبي الذي يحددها في قانون التحدي والاستجابة .

عوامل نشأة فلسفة التاريخ:

لقد كان السبب الرئيسي لنشأة فلسفة التاريخ كما أوضح روادها الأوائل، هو قصور الطريقة السردية، عن اكتشاف مسار التاريخ ، وغايته ،فجاءت فلسفة التاريخ لتحقق ذلك.

وقد أضاف فلاسفة التاريخ أسبابا أخرى لنشأة فلسفة التاريخ:

- أوضح (فولتير) أن هدف فلسفة التاريخ هو اكتشاف الحكمة أو المعنى الذي تتحرك به أحداث التاريخ ، من أجل تحقيقه لأنه وجد أن ما يكتبه المؤرخون، لا يحقق

هذا الغرض يقول: « بعد قراءة وصف مابين ثلاثة آلاف وأربعة آلاف معركة وبضع مئات من المعاهدات ،لم أجد نفسي أكثر حكمة مما كنت قبلها، حيث لم أتعرف إلا على مجرد حوادث لا تستحق عناء المعرفة.»26

لذا فقد دعا إلى تطبيق فلسفة على التاريخ ، ومحاولة تتبع العقل البشري من وراء تدفق الحوادث، يقول :« لا ينبغي أن يكتب التاريخ سوى الفلاسفة، لقد شوهت الأساطير التاريخ عند كل الشعوب.»27

- لا حظ ديكارت أن التاريخ يشد المؤرخ إلى الماضي شدا حتى يصبح غريبا عن الحاضر الذي كان من واجب المؤرخ أن ينفتح على الحاضر و على الأفكار الفلسفية المعاصرة كي يستطيع أن ينظر إلى الماضي بطريقة متوازنة، وأن يستخرج العبر التي تفيد الناس في الحاضر والمستقبل.

- أن المؤرخ الذي يعيش وطأة الماضي دون الانفتاح على الحاضر، يصاب بحالة شبيهة بالمرض وقد أطلق (نيتشه) على هذه الحالة وصف (داء التاريخ)، أي آفة العقل الذي يمنح ولاءه الكامل للماضي فيفقد قدرته على التفكير المستقل و المبدع، وهكذا ففلسفة التاريخ تسعى إلى تعويض هذا القصور لدى المؤرخين إذ تجعل للحوادث التاريخية المتتالية والمتراكمة معنى ومغزى، إذ تبدأ كما يلاحظ (كروتشه) من مشكلة قائمة في الحاضر، فإنها تقييم الإنسان دائما فيه، وتربطه به، ومن ثم لا يغوص في أعماق الماضي السحيق غوصا يجعله غريبا عن حاضره.28

- إن فلسفة التاريخ تعمل على شد الفلاسفة إلى عالم الواقع وحملهم على تأسيس أحكامهم العامة المجردة على وقائع التاريخ.

- فلسفة التاريخ نشأت أيضا لتلبية حاجات المجتمع في أوقات الأزمات والشدة كما يرى (نيقولا براديف) أنها كانت دائما حفزا على التفكير في الماضي وفي المصير ومثيرة للاهتمام .

هكذا ومن خلال هذه اللمحة الخاطفة يتبين لنا مدى حضور التاريخ في الفكر الغربي منذ اليونان مع (هيرودوت) و(تيوكيديدس) مرورا بالفكر الوسيط مع (أوغسطين) و(بوسويه)، وكذا تجلياته في العصر الحديث مع (فولتير) و(فيكو) و(هيجل) و(ماركس) الذين فلسفوا التاريخ.ولا يخلو العصر المعاصر من الاهتمام بالتاريخ فهذا تونبي وشبنجلر يستقرئ كل منهما تطور الحضارات وانهيارها من خلال التاريخ. وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين الذين يرون أن بقاء الأمم وتطورها مرهون بمدى وعيها بتاريخها.

الهوامش:

1-عفت الشرقاوي، في فلسفة الحضارة الإسلامية ، ط4، 1985 دار النهضة العربية للطباعة و النشر، بيروت ص:166-

2- صاطع الحصري ،دراسات في مقدمة بن خلدون ،ص:171
3- د/جميل موسى النجار ، فلسفة التاريخ،مكتبة مدبولي ، القاهرة،ط:1 /2011، ص ص:12/11
4- المرجع نفسه ،ص: 12
5- بن مزيان بن شرقي ،دروس في فلسفة التاريخ ،ص:17
6- المرجع نفسه ،ص:17
7- مصطفى النشار،من التاريخ إلى فلسفة التاريخ، ص:12
8- د جميل موسى النجار ،فلسفة التاريخ،مكتبة مدبولي ط:1 /2011القاهرة ص: 11
9- المرجع نفسه،ص: 12
10- بن مزيان بن شرقي ، دروس في فلسفة التاريخ ،ص: 17
11- د. جميل موسى النجار، مرجع سابق،ص: 13
12- المرجع نفسه ،ص:13
13- عبد الله العروي ،مفهوم التاريخ ، ص: 17
14- قسطنطين زريق نحن والتاريخ دار العلم للملايين ط 5 /1981 بيروت ص 49
15- بن مزيان بن شرقي ،مرجع سابق ،ص:14
16- أحمد محمود صبحي،في فلسفة التاريخ،مؤسسة الثقافة الجامعية،الإسكندرية،ب،ط،1975 ، ص: 11
17- خالد فؤاد طحطح ، في فلسفة التاريخ ، الدار العربية للعلوم،ط:1، 2009 بيروت لبنان، ص:24
18- المرجع نفسه ،ص:26
* -جوهان جوتفريد هردر ،ولد عام 1744 ،و قد درس الطب ،كما درس اللاهوت،و اشتغل بالتدريس،نشر كتابه (مقتطفات من الأدب الحديث)،شكل مع (جوته) حركة أدبية ،و نشر خلالها كتابه:" فلسفة أخرى للتاريخ"عام:1774 ، ألف في اللغة و الأدب و علم النفس و الدين و فلسفة الجمال،و له فيها أراء مبتكرة ،أهم كتبه التاريخية:أراء في فلسفة تاريخ الجنس البشري في 4 مجلدات صدر سنة:1784 إلى 1791 ، رسائل في تقدم الإنسانية في عشر مجلدات
19- بن مزيان بن شرقي ،مرجع سابق،ص:18
20- المرجع نفسه ،ص:19
21- مصطفى شاكر ، التاريخ العربي و المؤرخون،ج1،ط2 دار العلم للملايين بيروت ،1979 ،ص:53
22- د.جميل موسى النجار ، مرجع سابق،ص:19
23- عفت الشرقاوي'في فلسفة الحضارة الإسلامية ،مرجع سابق ، ص: 166
24- د رأفت غنيمي الشيخ ، فلسفة التاريخ ،دار الثقافة و النشر و التوزيع ، ب ط 1987 القاهرة، ص: 14
25- وولش ،مدخل إلى فلسفة التاريخ ص:129، نقلا عن هاشم يحيا الملاح ، المفصل في فلسفة التاريخ ، دار الكتب العالمية ،ط1 2007 بيروت لبنان،ص:6
26- المفصل في فلسفة التاريخ ، مرجع سابق، ص:5
27- المرجع نفسه،ص:5
28- المرجع نفسه، ص: 6